البحـــر والصيـــاد

من حصـاد الأدبيـات المحليـة

الأستاذ الدكتور

نبيل خالد أبو علي

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

الجامعة الإسلامية – غزة

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ. ١٩٩٦م

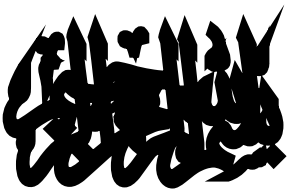

الإهداء

إلى أبـي .. حبـاً وتـذكـرة

فـي رحلة البـحث عن بـحر عسقلان

ABSTRACT

This research aims to draw the attention of scholars and those interested in the Palestinian literary movement towards the value of some literary works published in the local media. The researcher dealt with a group of short stories which appeared in the local newspapers during the Up-rising (Intifada). He studied them critically and indicate the changes emerged aiming to clarify their artistic level and indicate the changes emerges in the local short story in the light of political, economic, and social transitions that have occupied the region.

The research uncovered the reality of one at the Palestinian Community Sectors throughout the Intifada by means of analyzing the technical and linguistic significance's of such stories.

Finally, the research proposes a critical approach for the product care and at short stories by a writer who

has not received due attention, and notifies his artistic status that has revealed itself in his creativity in the domain of short stories.

ملخـــص البحـــث

يحاول هذا البحث لفت أنظار الدارسين والمهتمين بالحركة الأدبية والفلسطينية إلى القيمة الفنية لبعض ما ينشر في الصحف المحلية من الأعمال الأدبية ، وقد تناول الباحث مجموعة من القصص القصيرة التي نشرت في الصحف المحلية زمن الانتفاضة . وقام بدراستها دراسة نقدية متوخياً من ذلك إظهار المستوى الفني لهذه القصص ، والتنبيه على ما أصاب القصة القصيرة المحلية من تغيرات على ضوء المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة ٠٠ وقد كشف البحث النقاب عن واقع شريحة من شرائح المجتمع الفلسطيني في ظل الانتفاضة ، وذلك من خلال دراسة المضامين الفنية واللغوية لتلك القصص .

والبحث في النهاية يقدم مقاربة نقدية لنتاج قصصي لكاتب لم يحظ بالاهتمام والرعاية ، وينبه على مكانته الأدبية التي تجلت في إبداعه القصصي ...

أما قبـل :

كنت قد كونت رأياً خاصاً إزاء التجمعات الأدبية ووسائل النشر المحلية ، والتي أخص منها بالذكر في هذا المقام الصفحات الأدبية في صحفنا ومجلاتنا المحلية ، وقد عبرت عن رأيي هذا في أكثر من دراسة ومقال صحفي٠٠٠ والأمر هنا جد مختلف ، فلهذه الصحف والمجلات يعود الفضل في التنبيه على السمين من خلال ما يحيط به من الغث ، وقديماً قالوا : بالأضداد تتضح الأشياء!! لذلك ليس للمهتمين بالأدب مبرر في إعراضهم عما ينشر في الصحافة المحلية ،

سواء أكان أصنافاً من اللاأدب الذي ينبغي إظهار مبررات إخراجه من دائرة الأدب، ومحاربة انتشاره لكي لا يفسد الذوق العام ، أم من الأعمال الأدبية الجيدة التي تستحق الجمع والدراسة ٠

ومن خلال متابعتي للحركة الأدبية المحلية في السنوات الست الأخيرة وقفت على صنوف من المنشورات المتشبهة بالأدب ، وأجريت عليها دراستين ، الأولى كانت بعنوان : اللاشعر وقد تم نشرها(١) ، والثانية بعنوان: اللاقصة وهي في طريقها إلى النشر ٠ أما الأدب الجيد الذي يستحق الدراسة فقد جمعت منه ألواناً تحتاج إلى أكثر من جهد٠

ومما لفت نظري وأثار اهتمامي بعض ما نشر من أعمال الكاتب عثمان خالد(٢) ، حيث جسد فيها واقع شريحة غير منكورة المكانة في مجتمعنا الفلسطيني

عامة ، والغزي بصفة خاصة ، وهو واقع الصياد الغزي وعلاقاته البرمائية ... وتثير قراءة هذه القصص وهي :

- هجرة النورس الخريفية (نشرت في مجلة الكاتب – العدد ١٤٣ – مايو ١٩٩٢)٠
- الفنار (نشرت في البيارق – ١٩٩٢/٧/١٧م)
- السردين المر (نشرت في مجلة الكاتب – العدد ١٤٨ – أكتوبر ١٩٩٢)٠
- آخر حقائق غرق البحار سعيد (نشرت في المنار – ١٩٩٢/١٠/٥م) ٠
- الشندر (نشرت في النهار – ١٩٩٢/١٠/٨م)٠

عدداً من التساؤلات ، قد يكون أهمها : لماذا أقدم عثمان خالد على كتابة هذه القصص ؟

لعل الرغبة في إثبات الوجود الأدبي تكون سبباً من الأسباب ، ولكن الذي يمكن أن أستشفه من قراءة

هذه القصص أن الكاتب لديه جديد يمكن أن يضاف إلى رصيد القصة الفلسطينية ٠

وبداية فإن الموضوع الذي تعالجه القصص بشكل عام هو المعاناة الإنسانية في صور شتى ، أما البيئة التي تصورها القصص لتجسيد هذه المعاناة فهي البيئة الغزية – بحرها ويابسها – ، والصياد هو الشريحة أو الأنموذج الذي تنعكس صورته على صفحات تلك البيئة بكل موروثها ومكوناتها ، وذلك بهدف إظهار أثر القوى والعوامل ، الثابتة والمتغيرة ، التي تحيط به – أي الصياد – ، ومعرفة مدى تأثيرها على تصرفاته الحياتية في إطار زماني محدد هو عصر الانتفاضة ٠

وإذا كانت القصة بشكل عام ، والقصة القصيرة بشكل خاص قد افتقرت لهذا اللون من الأدب – أدب البحر، فإن القاص عثمان خالد لم يكن تناوله لهذه

الشريحة العريضة من شرائح المجتمع الفلسطيني ضرباً من التطفل ، خاصة إذا ما بحثنا عن دلالات هذه القصص في الظروف التاريخية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للكاتب ، وفي تكوينه النفسي والثقافي ، وتفاعل هذا التكوين مع الملامح الجديدة لبيئة الصياد ومعاناته اليومية . إن تراث البحر الفلسطيني لا يمكن أن يمسح من ذاكرته مأساة عثمان خالد أبو جحجوح ، فهي من أدق الخصوصيات التاريخية التي تختزن إلى جانب مثيلاتها في ذاكرة الصياد الفلسطيني . قد تكون هذه المأساة من خصوصيات الكاتب ، وقد يكون لاستشهاد عمه على شاطئ بحر عسقلان عام ١٩٤٨م على تلك الصورة المروعة أثره في توجيه الكاتب هذه الوجهة ، وقد يكون لاستشهاد والده في المهجر الغزي عام ١٩٥٦م دور في تفعيل ذلك الأثر ٠٠(٣) ، ولكن الوشائج ودلائل

الانتماء رغم انتفائها ظاهرياً بين الكاتب وهذه الشريحة – فهو يعمل في سلك التعليم – تعكس لنا علاقة جدلية ومقدرة فائقة على سبر أغوار البحر والنفس البشرية المرتبطة به ٠

*** هجرة النورس الخريفية (٤) :**

ففي هذه القصة تتجسد مأساة الكاتب الخاصة من خلال مأساة بحرية عامة أفرزتها الظروف نفسها – الاحتلال – في بيئة زمانية مغايرة – زمن الانتفاضة ، وما رفوف النورس المهاجرة إلا دليل على حالة القلق وعدم الاستقرار التي تعيشها تلك الشريحة من شرائح المجتمع الفلسطيني التي عانت كغيرها من شرائح المجتمع ، وما زالت تعاني من آثار هجرة عام ١٩٤٨م، فالبحار الذي فقد معظم بحره ما زال يعيش معركة قد لا

تكون من أجل استرجاع المسلوب ، وإنما للمحافظة على الباقي المتردد بين القيد وبين السلب، ومن هنا اقترنت الهجرة بالخريف وما يحمل من رموز وايحاءات٠٠٠(٥).

لذلك ففي ظني أن الكاتب قد أفلح في ربط الطبيعة بتناقضاتها – كما صورها – مع الحالة النفسية للصياد ، وقد تداخلت المشاهد بكثافتها وسرعتها المذهلة وإيجازها الموحى، وكأنها تجتاز بالقارئ أعماق النفس البشرية لتكشف ما يعتمل بها من المشاعر التي شكلها الماضي الجريح والواقع المعاش ، فنسمات الهواء الخريفية ، ورفوف النورس الحلزونية ، وموج البحر بزرقته وبياضه، وقرص الشمس بحمرته ، وطيف والده الذي سقط شهيداً على شاطئ البحر ، والمناظر الساحرة للنوارس وهي تشارك الصيادين صيدهم ٠٠٠ كل ذلك تجلى من خلال استرجاع تفاصيل الحدث – استشهاد

والـد الصـياد سـعيد – ، وتبريـر وقوعـه ، وشـرح كيفيـة وقوعه ، وبيان مكان وقوعه وزمانه ٠٠٠ وفي خضم هذا كلـه تبـدو براعـة الكاتـب فـي استقصـاء عناصـر القصـة القصـيرة والتـزام إرشـادات النقـاد ، فالقصـة مـوجزة كمـا ينبغـي أن يكـون الإيجـاز ، وهـي فـي قـوة تأثيرهـا وغـزارة معانيها تبدو واقعاً وحياة تلقى بظلالها على وجدان القارئ وفكره ، وتترك الباب مفتوحا أمام عين خياله(٦) ٠

لقد برع الكاتب في دمجنا مع عالم الصياد حيث عشنا معه رحلة صيد بحرية ، وتعرفنا على أدوات الصيد وطريقتـه ، وعايشـنا حالـة الصـياد النفسـية ومـا يكابـده ، فسـرت فـي عروقنـا حميـة لا تختلـف كثيـراً عـن حميـة الصياد الذي يعاني جور قوانين الاحتلال التي تحول بينه وبـين معشـوقه المعطـاء ، وتجلـت مـن جبـروت وطغيـان المحتـل أشـكال تعكـس تسـلطه فـي اختـراع القـوانين

وتسليطها على رقاب الصيادين ومقدرات حياتهم : " بس ٠٠ اسكت ٠٠ اسمع ٠٠ ممنوع دخول البحر شهراً كاملاً ٠ قال ذلك مسئول حراسة البحر وهو يقف بميوعة وسط حراسه المدججين بصنوف العذاب، يلوك القرار ببرود شديد أغاظ البحر فانفجر كبركان هائج٠٠" ٠

وإذا كان الاسترجاع الذهني للماضي قد بعث في القارئ دلالات واضحة حول الممارسات الإسرائيلية ، فإنه أيضاً يضع القارئ في صورة البطل من الداخل ، فمأساة الماضي لا تسلبه حياة الحاضر ، ولا تثنيه عن مواجهة تلك الحياة ، فإذا كان والده قد واجه القرار قولاً وفعلاً : " ثلاثون يوماً يا ظالم ، ساعة من التأخير تعنى في مذهبكم شهراً ٠٠" ودفع حياته ثمناً لتلك المواجهة ، فإن البحار سعيد يعلن استمرارية الحياة : " مسح عينيه ،

مشى إلى البحر ، وقف ، ودَّ لو يدفن آلامه فيه ، لكنه أقعى وغسل وجهه ومضى صوب قرص الشمس " ٠

قد يكون هدف القاص في هذه القصة واضحاً على المستويين : المعنى المباشر ، والمعنى الايحائي ، فهي تسعى إلى تأليب المشاعر ضد المحتل وممارساته التعسفية، كما تشير إلى عدم جدوى ذلك الشكل التقليدي من أشكال المواجهة مع المحتل ، حيث أمات القاص الأب الذي يمثل الشكل التقليدي ، ووهب الابن الحياة ليدلل على سمة التفاؤل والإصرار على مواصلة التغيير الذي يغلف وجدان الفلسطيني ، وما حياة هذا الابن واستمراريتها ، إلا ضرب من ضروب التدليل على حياة الشعب الفلسطيني واستمرار نضاله ٠٠

*** الفنـــار (٧) :**

قد يبدو أسلوب عثمان خالد في " الفنار " أسلوباً واقعيـاً لا يكتنفـه الغمـوض والإلغـاز ، ولا يميـل إلـى التجهيل والتعتيم ، فعالم " الفنار " عالم واقعي ، بسيط ومألوف ، وأشخاصها ليسوا إلا نمطا بشرياً إيجابيا واضح الخصـائص والسـمات ، يـرتبط بـالواقع ارتباطـاً تاريخيـاً وتراثياً ، ويتصرف من خلال هذا الارتباط مع ما يستجد من أحداث الحياة اليومية ، فتأتي أفعاله مبررة بعمق هذا الارتباط ومصداقيته حيث تعكس سلوكاً عادياً يتجانس مع ما يحدث على أرض الواقع ٠

ومع ذلك فالقراءة الفاحصة تظهر براعة الكاتب الفائقة في بناء الجملة القصصية ، فكثافة المعاني تكاد تحجب الشح في استخدام الكلمات ، واعتماد التصوير

على تعدد مستويات المعنى وأبعاده الرمزية يكاد يحجب ذلك الوضوح والمباشرة المألوفة(٨) ٠ فما يبدو واقعاً مألوفاً في بناء ذلك الكوخ على شاطئ البحر ، يتحول في رحلة البحث عن الأصول إلى رمز متعدد المعاني والأبعاد ، فالألواح التي بنى منها الكوخ هي البقية الناجية التي اهتدت إلى شاطئ يجتمع عليه شملها بعد التشتت ورحلة المعاناة التي نتجت عن الدمار والخراب الذي أصاب عالمها السابق، وإذا كان البحر لا يقذف إلا الميت ، فهي في حكم الميت في انفصالها عن جذورها وبعدها عن بنات جنسها ، وهي في واقعها الجديد رغم جدواها كالميت الذي يحلم بالحياة ، وما وقوفها على شاطئ البحر إلا كمن يقف على باب الحياة في تحد وعناد ليرقب من كان مرتعاً لحياته ثم أداة لقتله – البحر – ، وفي خضم هذا كله ينبغي ألا نغفل التبرير الرائع

لوقوع الحدث(٩) – المأساة – الذي وضع الألواح في مواجهة هذا المصير القاتم : " قد عصفت بك الأنواء ، أو غالب النعاس قائد الدفة وقد أعياه السهر أو هده الشوق والحنين فكانت تلك اللحظة الهائمة التي تبلغ أجزاء مقتطعة من الثانية ، فكانت المصيبة والكارثة ، وكان الاصطدام بصخرة عمياء حولت المركب إلى شظايا من ألواح هائمة تتقاذفها الأمواج ، ومن ثم تتلقفها الشطآن الجائعة ٠٠"٠ وهي في واقعها الجديد بعد الشتات ورحلة الضياع ، ما زال لها دور تؤديه ، دور مستمد من تجربة ومعاناة ، فهي المرشد والقائد ، هي الفنار الذي تهتدي به السفن ٠٠ هي الكوخ والرمز الذي تتشابك حوله الأحداث وتتدرج في تحولها إلى كابوس مزعج يضعنا وجهاً لوجه أمام قرار قهري يلغى وجود

الكوخ : " هذا بعد شوية مش لازم يكون هون ! أنت فاهم ٠٠ أنت بتسمع ٠٠" ٠

وهنا نكون قد اقتربنا من نقطة التنوير التي نجد فيها تفسير ما حدث ، والتي نصل معها إلى ما يريد الكاتب الإفصاح عنه ٠

فإذا كانت هجرة النوارس في القصة السابقة إشارة واضحة إلى هجرة الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨م ، فإن "الفنار" أكثر عمقاً وبراعة في التعبير عن هذه الهجرة ، وأكثر ايحاءاً بما أصاب هذا الشعب في طريق هجرته ، ثم هي في النهاية أشمل تصويراً لواقع هذا الشعب بعد سنوات هجرته الطويلة ، وما يتعرض له من محاولات مستمرة لاقتلاعه من جذوره ، فالموازنة قائمة بكل أبعادها بين أصالة هذا الكوخ وواقعه المأساوي ، ومعاناة هذا الشعب وما يتعرض له ٠ أما البحر فقد تأهل في خضم

الأحداث لأخذ أبعاد رمزه التقليدية بتناقضاتها التي تشير إلى البعيد اللامتناهي بمجاهله وأهواله فترسم الصورة السوداوية وتبرز النزعة المأساوية ، كما تشير من جانب آخر إلى العطاء اللامحدود: "طرح شبكته لتعانق عبء الموج الذي أدمنها ، وحين سحبها ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه. كانت الأسماك تتقافز على الرمل ٠٠" ، فترسم صورة لغد مشرق يقوم على الأمل والتفاؤل. أما صورة المواجهة التي رسمها الكاتب ببراعة لتصنع النهاية المفتوحة لقصته : "كانت العربات قد أطلت من بعيد ، خنافس تزحف على الرمل ، الهدير يقترب ، جماعات الصيادين تتوافد ، كثر الحشد ، أحاطوا الكوخ من كل اتجاه، حموه بأجسادهم التي لوحتها الشمس وصبغتها بالصبر والسمرة ، العربات سارت قريبة جداً، الأجساد صارت أكثر التصاقا ، صارت جسداً واحداً

يلتف ويحضن الكوخ " الفنار " ، فقد عبرت عن الوجدان وتوحده في رفض ممارسات المحتل وتدخله المفاجئ بقوانينه المبتدعة وقراراته الصارمة والمدمرة، وبهذه الصورة الدرامية شرح الكاتب واقع الإنسان الفلسطيني في سنواته الست الأخيرة ، وما تصدى الصيادين العزل للدفاع عن كوخهم – الوطن ، القائد ، المرشد – بأجسادهم العارية إلا تفسير لواقع الشعب المقاوم ٠

وبعد ٠٠ فإذا كان القاص قد ارتأى محاربة الخوف في الإنسان الفلسطيني وبعث الشجاعة فيه ، بحيث يتصدى بصدره العاري لزحف العربات العسكرية ، فإنه قد وفق في ذلك ، كما وفق في قصته السابقة ، وإن كانت هذه القصة قد امتازت عن سابقتها بنهايتها المفتوحة التي أبقت نافذة الأمل مفتوحة لكي يراها من لا يرتدى نظارة سوداء(١٠) ٠

على هامش الفنار :

إن القصة غنية بأبعادها ومضامينها ، فهي تعكس البعد التراثي والحضاري للبحر الفلسطيني ، كما تحرص على إظهار إنسانية الحضارة الفلسطينية بشكلها العام ، فالصياد " جميل حسن " يبدأ نهاره باسترجاع هموم ومعاناة الإنسانية "من أي المراكب أتيت ي وما المسافات التي قطعتها ؟ وما مصير الصيادين الذين كانوا على ظهركي٠٠"٠ وهي أيضاً تعكس الصورة المشرقة لواقع المرأة الاجتماعي ، ذلك الواقع المدلل الذي نرى من بين إيحاءاته الإيجابية الصياد " الأب " وقد انتسب بفخر واعتزاز إلى ابنته " حُسُن " ٠

والقصة تصور مشهداً آخر من مشاهد حياة الصياد، وتقدم أسلوباً مختلفاً من أساليب الصيد ، فهي

قصة برمائية إن جازت التسمية ، فعلى الشاطئ نرى الصياد وقد بات يحرس بحره ، ثم أصبح يتفقد محروسه ويصلح ما فسد في أثناء نومه ، وفي البحر نرى شبكة الصياد وهي تعانق الموج لتقدم أسلوباً آخر من أساليب الصيد، " شبكة الطرح"٠

وكانت الأمثال البحرية الفلسطينية الأداة السحرية للاختزال ، حيث كثفت المعاني ، وقدمت الكثير من الدلالات بالقليل من الألفاظ : " يوم الغمقة(١١) بعشرة شط "، " هي الميه الصافية بتجيب سمك " ، " لو هجرك البحر دوم ما بتعدش عنه يوم "٠ فالمثل الأول يُحَرِّض على المغامرة، والثاني يغري بها، أما الثالث فيجعل الآمال تنعقد على نتائجها ٠٠(١٢) ومن هنا تظهر براعة القاص في توظيف هذه الأمثال وتبيان أثرها في تشكيل سلوك الصيادين ٠

وأخيراً فإن هذه القصة تظهر التحول الكبير في نظرة الفلسطيني إلى قوة المحتل وجبروت أدواته الحربية ، حيث دللت على كسر الانتفاضة حاجز الخوف ، فظهرت العربات العسكرية بصورة "خنافس تزحف على الرمل" ، الأمر الذي برر سلوك الصيادين العزل الذين قبلوا التحدي وتصدوا بأجسادهم العارية.

*** السـردين المـر(١٣) :**

تصور القصة حادثة استشهاد طفل من أطفال المخيم لم يبلغ السابعة من عمره ، وهي حادثة مألوفة في بيئة الانتفاضة ، أما غيرُ المألوف فهو إصرار الكاتب على تبرير وقوع الحدث ٠ فالطفل الذي حصل على (الشيكل) من والده الصياد المعدم ، والذي يركض خلف بائع الفيشار المتجول من حارة إلى أخرى ومن زقاق إلى زقاق رغم زخات الرصاص التي أصبحت مألوفة لسكان المخيم بمن فيهم الأطفال ، يلتقي في النهاية بائع الفيشار – الذي لم تواته الفرصة للهرب – في أحد الأزقة ، وعندها يحدث انفجار قنبلة الصوت الذي يخرج الطفل " أحمد " – ولو للحظة – من دائرة المألوف فيقع الشيكل من يده قبل أن يصل ليد البائع ، ومع انحناء الطفل

لالتقاطه تحدث الكارثة ، حيث يطلق جنود الاحتلال النار على الطفل فيردوه قتيلاً٠٠٠ وهنا نصل مع القاص إلى نقطة تبرير الحدث ، لِمَ قتل أحمد ؟

رغم حرص القاص على تصوير بشاعة الحدث – قتل براءة الطفولة – إلا أنه لم يوفق حينما جعل الطفل متهماً ولو من جهة نظر جنود الاحتلال ، فإقدام الجنود على قتل الطفل مبرر بانحناء الطفل لالتقاط شيء ما عن الأرض! لم لا يكون هذا الشيء هو الحجر ؟؟ ورغم أن الكاتب سعى جاهداً إلى تصوير بشاعة فعل المحتل حيث جعل الغاية من قصته هي تبرئة الطفل ، ومن ثم كشف الزيف وإظهار مدى تزوير الحقائق عند المحتل ، فالأمر مرتبط بالشيكل وليس بالحجر ٠٠ إلا أنه لم يوفق حيث التمس العذر – بغير قصد – للمحتل فيما أقدم عليه ، ألم يلتبس عليه الأمر؟؟

وهنا نلاحظ أن الكاتب الذي ألتزم في قصته المذهب المادي الذي يقوم على الوقائع المحسوسة ، ويستمد مادته من الحياة المحيطة(١٤) ، قد خرج عن محيط هذا المذهب في تبرير الحدث ، فعلى أرض الواقع برر المحتل أفعاله الهمجية باللاواقعي من المبررات ، أما في هذه القصة فقد حاول الكاتب أن يمنطق تبرير الحدث مع أن المنطق لا يقبله على أرض الواقع ٠٠٠ وبالتالي تخفق القصة في الوصول إلى الغاية التي أرادها القاص ، فهو يسعى إلى فضح ممارسات المحتل ، ثم يدلل على أن هذه الممارسات جاءت نتيجة خطأ في التقدير حيث الشبهة التي أثارها سلوك ذلك الطفل ٠

ومع ذلك يمكن القول إن القاص أراد أن يثبت من خلال هذه القصة بطلان الذريعة التقليدية التي يتذرع بها المحتل بعد كل عمل إجرامي يقدم عليه ، وهي تعرض

أفراد جيشه للخطر ، وبالتالي فإن غفلته في تبرير الحدث لا تحول دون وصول القصة إلى الغاية المنشودة ، وخاصة أن الكاتب قد أصر بأكثر من وسيلة على تصوير صغر عمر الطفل ، مما يدلل على زيف ذلك الادعاء التقليدي أمام براءة الطفولة ٠

وأياً كان الأمر فإن القصة لا ترقى إلى مستوى القصتين السابقتين ، فهذه القصة في شكلها العام قصة قريبة من التسجيلية(١٥) ، صور فيها الكاتب مشاهد مختلفة من حياة الصياد وبيئته الخاصة والعامة زمن الانتفاضة تصويراً واقعياً دقيقاً ، مما جعلها تبدو وكأنها مجموعة من التقارير الوصفية كتبت بأسلوب تقريري ولغة مباشرة، الأمر الذي جردها من بعض خصائصها الفنية ٠

فعنصر التركيز – مثلاً – الذي يكاد يكون أهم ما تتميز به القصة القصيرة يختفي بين غياهب الاستقصاء وشرح جميع التفاصيل اللازمة وغير اللازمة ، وفي المشاهد الثمانية التي تتألف منها القصة دليل واضح على ذلك :

- اتجاه الطفل " أحمد " صوب بائع الفيشار رغم سخونة الموقف ٠
- إرغام أحمد على ترك فراش النوم ٠٠٠ وهربه من أمه للعب في الحارة ٠
- عودة والد أحمد من ليلة صيد بحرية ٠٠٠ وإبراز هيئته كصياد٠
- عودة أحمد من الحارة وحصوله على شيكل من والده ثم خروجه ثانية ٠

- استرجاع والد أحمد لممارسات جنود الاحتلال داخل البحر ٠
- تتبع أحمد لبائع الفيشار ووقوع المأساة ٠
- مشهد جنائزي ثم كشف الحقيقة " إنه شيكل وليس حجراً " ٠
- عودة حزينة للبحر والصيد وإعلان استمرارية الحياة والتحدي ٠

إن قارئ المشاهد الثمانية التي تتألف منها القصة يلاحظ أنه بإمكان القاص أن يبدأ من أي مشهد مغاير للمشهد الذي بدأ به قصته دون أن يغير ذلك من الأمر شيئاً كما يلاحظ أن القاص ينتقل من مشهد إلى آخر انتقالاً لا تحكمه ضرورة ٠٠

وبعد ٠٠ لقد أفلح الكاتب في اجتناب المزالق التي وقع فيها غيره من الكتاب الذين تناولوا أطفال

الانتفاضة في أعمالهم القصصية حين أظهروهم بصور مفتعلة كأبطال لا تتناسب أفعالهم الخارقة مع حداثة سنهم وما يترتب عليها من ملامح التكوين النفسي وصفات الضعف الجسدي ٠ فالكاتب عثمان خالد كان أصدق تعبيراً عن واقع الطفل حيث ربطه في قصته بتكوينه وواقعه كطفل جبل على عشق اللهو واللعب ، وكذلك كطفل تتصف أفعاله بالسذاجة التي تتجافى مع خبرة الكبار وحذرهم(١٦) ، فبينما نتابع الطفل وهو يركض من زقاق إلى آخر باحثاً عن بائع الفيشار المتجول نلحظ البائع وقد احتمى خلف جدار في أحد الأزقة ٠

وقد جاءت نهاية القصة متجانسة مع الغاية التي أشرنا إلى حرص الكاتب على تحقيقها عند مناقشة القصة الأولى ، فإذا كان في قصته " هجرة النورس

الخريفية " قد قتل الأصل وأبقى الفرع ليعلن الصمود واستمرارية الحياة ، فإنه في هذه القصة يعلن استمرارية الحياة بصورة مغايرة تدلل على المقدرة الحتمية – وبأية وسيلة – على التحدي حيث قتل الفرع وأبقى الأصل لتلح الغاية نفسها على وجدان القارئ وتعلن استمرارية الثورة من خلال استمرارية الحياة المتمثلة في مقدرة الأصل – الأب – على المواصلة والعطاء ٠

بقى أن نقول لم تنفلت القصة من شراك البحر رغم امتداد جميع خيوط الحدث على يابسة المخيم ، فهي تقدم مشهداً آخر من مشاهد حياة الصياد الغزي ، ففي ركن من أركان المشهد نرى اللنش والشباك ، ونتعرف على أسلوب آخر من أساليب الصيد ٠ وفي ركن آخر نرى الواقع الاقتصادي المتردي للصياد ، وتكفي الموازنة الرائعة والعجيبة التي أقامها الكاتب بين تأثير صوت

الرصاص ورائحة الغاز من جانب، والحصول على الشيكل ومن ثم بائع الفيشار من جانب آخر على مشاعر الطفل ووجدانه الذي ألف قسوة المحتل وعنفه بحكم الاستمرار والديمومة ولم يألف الشيكل والفيشار بحكم الندرة والانقطاع ، للدلالة على مرارة ذلك الواقع "فالأمر –أي ممارسات المحتل – في منتهى العادية ، حيث يعيش الموقف ذهاباً وإياباً ، من وإلى المدرسة في كل يوم حتى اعتادها ، أما الحصول على الشيكل وبائع الفيشار فهذا هو الأمر غير العادي"٠

وفي زاوية هذا الركن من أركان المشهد نرى الصورة المشرقة للمرأة الفلسطينية ، صورة القناعة متجسدة في زوجة الصياد ، تلك المرأة التي استعاضت عن العطور برائحة السردين ، وفضلت رائحة الحياة على زخرفها ، وهي في خطابها لزوجها : " أنني أنتعش بهذه

الرائحة أكثر من رائحة العطور ٠٠٠" تبدو وكأنها تردد ما قالته سالفتها في تفضيل شظف العيش في مضارب عشيرتها وبين أهلها على العيش في القصور الفارهة(١٧) :

ولبس عباءة وتقر عيني
أحب إليّ من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي
أحب إليّ من أكل الرغيف

*** أخر حقائق غرق البحار سعيد(١٨) :**

قصة متميزة بعمق تجربتها وقوة جاذبيتها ، فهي تسيطر على القارئ منذ الجملة الأولى حتى نهايتها ليصل إلى الحقيقة الأخيرة من حقائق غرق البحار سعيد ، والكاتب منذ بداية قصته يضعنا في مواجهة الحدث

الأساسي فيها مباشرة فيبدأ بقوله: " دبت الفاجعة في وسط الصيادين ، وسرى في مفاصلهم الوجع ، وأصابهم هلع شديد، ضربهم كعاصفة هوجاء زلزلت الصغير والكبير بعد سماع الخبر الذي انتشر انتشار الريح ، لا بل البرق ، فخطف الأبصار وذهب بالعقول، فراح الجميع وقد تلبستهم حالة من الذهول الشامل بين صارخ ونائح ، وجوال على غير هدى ، وعلامات الاستغراب المتسائلة تملأ الأفواه ، حتى البحر والفضاء ٠ كيف حدث ذلك ؟!" ٠

وقبل أن يشرع القاص في الإجابة عن سؤاله – كيف حدث ذلك ؟ – يبدأ في رسم ملامح شخصية البحار سعيد ، تلك الملامح التي سوف تؤكد على الدوافع التي مهدت لوقوع الحدث ، وبطريقة بارعة توحي بالعفوية بدأ القاص في استحضار ملامح تلك الشخصية من

خـلال اسـتنكار الصـيادين وقـوع الحـدث وذلـك للقـرائن الكثيـرة التـي تسـتدعي عـدم وقوعـه والتـي تظهـر أوجـه البطولـة الخارقـة لتلـك الشخصـية الإيجابيـة ٠ وكـل ذلـك بطريق الاسترجاع الذهني الذي يبقى معلقاً على استنكار وقوع الحدث ، فالبحـار سـعيد هـو منقذ الشـاطئ ، وهـو المخلص لكل ما يعلق من شباك أو شراك أو ما يختفي في قعر البحر ، والصيادون يذكرون آخر مرة حينما أنقذ ثلاثـة غرقـى دفعـة واحـدة مـن دوامـة يعجـز عـن اجتيازهـا أعتـى الصـيادين عومـاً وغطسـاً ، ومـع اسـتمرار إحساسـهم بجسامة الحدث " تندلق الذكرى صوراً شتى فيتساءلون : من خلص الشنشولة عندما علقت عن آخرها ؟ ٠٠ ومن ينسـى يـوم الغربـة ؟ حـين جمـع البحـار سـعيد عشـرة صيادين بين ذراعيه وأنقذهم بحنكته من الغرق ؟

والقاص عثمان خالد الذي يبرهن على تمكنه من أدواته القصصية ، ووعيه بتكنيك كتابة القصة ، لا يبخل على القارئ بالتفاصيل التي تمكنه من التعرف على الشخصية الأساسية في قصته ، وكأني به يسعى لتوطيد العلاقة وبناء أواصر المحبة والتعاطف مع شخصية البحار سعيد ، تلك الأواصر التي ستجعل الفاجعة تجرى في عروق القارئ أيضاً ، فهو بعد أن يقدم السمات السلوكية الإيجابية لتلك الشخصية يعود ويقدم تفصيلات أخرى عن الملامح المميزة لبنية تلك الشخصية ببعديها : الجسماني والنفسي(١٩)، هي على الصعيد الجسماني شخصية " شاب يافع ممشوق القَوام ؛ بسواعد فتية فتلتها عواصف البحر ٠٠٠" ، وهي على الصعيد النفسي شخصية صلبة الإرادة ، قوية الشكيمة ، فهو الذي يقرر يوم الغربة قبول تحدى أنواء البحر وأمواجه المتلاطمة

حين يقول : " لن أتركهم يهلكون، إما أن نخرج معاً أو نموت جميعاً ، سأكون معهم في الحالتين " ، يقبل التحدي رغم علمه بجهل الصيادين المستجدين العشرة بفنون العوم ٠٠٠ ومع إصراره تتحقق النجاة ٠٠٠ وصلابته في التحقيق هي التي جعلت المحقق يلجأ لأساليب غير إنسانية ٠٠ ورغم اضطراب القوة الجسمانية بعد تجربة البَحَّار الاعتقالية ، إلا أن قوة الإرادة وصلابة البنية النفسية جعلته يقدم على إنقاذ الغريق الأخير رغم علمه بحقيقة مرضه وما قد ينتظره من جرّاء القيام بهذا الواجب ٠٠٠!

وهكذا نلاحظ أن القاص ببراعة متناهية حرص على تقديم شخصية حية تدب على أرض الواقع مع أن الشواهد توحي بأنها شخصية أسطورية ، فالشواهد التي

برهنت على أهليتها للحياة على أرض الواقع هي عين الشواهد التي تبرهن على أسطوريتها ...

وبالرغم مما هو معروف عن اجتهاد النقاد في الفصل بين صفات الشخصية في القصة القصيرة ، والشخصية في الأسطورة الأولى ، إلا أن القاص برع في دمج الصفات ، فملامح الشخصية في القصة القصيرة كما حددها النقاد تتجلى في هذه القصة بوضوح ، فهي الشخصية التي أكتمل بناؤها للقيام بالدور المحدد لها في حدود الخصائص الجسمية والنفسية التي تدلل على العلاقة بين الحدث وبين تلك الخصائص ، وهي أيضاً الشخصية التي تحمل الكثير من صفات البطل الأسطوري الأول ، ذلك البطل الخارق الصفات والأفعال ، وهو المنقذ الوحيد ، والذي يأتي الخير على يديه ، وهو البطل الذي يعيش للجماعة وفي الجماعة ... ولولا

عـودة تلـك الشخصـية – فـي النهايـة – لمواجهـة نفـس المصير الذي يواجه طبقة الصيادين المقهورة ، وظهورها كبطولة مقلوبة تجسد الصبر والمعاناة واحتمال الشدائد ، لبقيت تحلق في عالم الأساطير(٢٠) ٠

أما بناء القصة فيتكون من أربعة أجزاء متتابعة ومتداخلة ، وسبب تداخلها أن القصة بدأت بالحدث وانتهت به ، وبين البداية والنهاية تشابكت تلك الأجزاء في رحلة البحث عن كنه الحدث وملابساته ، والأجزاء هي :

١- الحدث الرئيسي : ويتمثل في غرق البحار سعيد ، وقد أكتمل الحدث مع بداية القصة ، ومع ذلك لم تفقد القصة عنصر التشويق الذي يجعل القارئ يلهث في البحث عن سبب وقوع الحدث مما يكسب

القصة ترابطها ويجعل لكل كلمة دلالتها منذ البداية حتى الوصول إلى آخر الحقائق ٠

٢- استنكار وقوع الحدث : ويتجسد في الاسترجاع الذهني للصيادين ، حيث تتجلى أوجه البطولة الخارقة للبحار سعيد ، ويتبعها تبيين مقومات تلك البطولة التي تجعل غرق البحار سعيد أمراً لا يصدق ٠

٣- أسباب وقوع الحدث وكيفية وقوعه : إن حالة الصرع التي نتجت عن الأساليب غير الإنسانية للمحقق داخل السجن هي السبب الذي أدى لوقوع الحدث ، أما كيفية وقوعه فنراها في نوبة الصرع التي داهمت البحار سعيد وهو يحاول إنقاذ صبي كادت تفترسه الأمواج ٠

٤- الخاتمة والموتيف " Motif " : وتتمثل في المشهد الجنائزي الذي يتجسد في لف جثمان البحار سعيد بعلم الصيادين – شراع الفلوكة الأبيض – ، ثم تشابك أيدي الصيادين المتعاهدة ٠ هذه الخاتمة المأساوية التي جسدت موقفاً سلوكياً هادفاً، والتي أصبحت عند عثمان خالد موتيفاً يتكرر في ختام كل قصة ٠٠٠

وكما برع الكاتب في إحكام خاتمة قصته بحيث لم يترك خلفه ثغرات أو يدع مجالاً لأية إضافات أو تفاصيل جديدة ، كذلك برع في اختيار عنوان قصته ، ذلك العنوان الذي يثير في نفس القارئ الكثير من دلالات الأفكار التي تصطرع في ذهن الكاتب ، وكأنه من خلال هذا العنوان أراد أن يقول للقارئ : إن هنالك الكثير من الشائعات التي جرت مجرى الحقائق في تبرير

غرق البحار سعيد ، ولكن الحقيقة الأخيرة هي الحقيقة التي جهدت حتى أعرفها وأخبرك بها(٢١) ٠

وبين العنوان والخاتمة نرى براعة القاص عثمان خالد في إثراء قصته بالكثير من التفاصيل التي تعكس أصداء الواقع الفلسطيني بشكل عام ، وواقع الصياد الغزي بشكل خاص ، دون أن ينزلق في متاهات الاستطراد أو يقع في سذاجة المباشرة حيث أعتمد الاختزال والتكثيف وسيلة ، والإخبار عن طريق الإيحاء أسلوباً ٠٠ ففي قوله – مثلا : "٠٠ حيث كان باب العمل في الداخل قد أغلق ، فاتجه الكثير من الرجال يسترزقون من البحر بدون ممارسة أو خبرة سابقة ٠٠" يعكس أصداء الواقع السياسي والاقتصادي لمجتمع الانتفاضة ، حيث عرَّض بسياسة العقاب الجماعي التي تتبعها سلطات الحكم العسكري ، وبين أثر تلك السياسة

على حياة العامل الفلسطيني ، فإغلاق باب العمل داخل الخط الأخضر جعل العامل يرتاد البحر الذي لا تؤمن غوائله لكي يكسب قوت عياله مع أنه لا يعرف مجاهله ولم يزاول حرفة الصيد من قبل ٠

وفي قوله : " ٠٠ ضمته قضبان الاعتقال بتهمة تهريب رجال اتهموا بخلخلة الأمن العام ٠٠٠" يعطى بعداً آخر لصورة البطل المنقذ – البحار سعيد – ويبين أسلوباً من أساليب النضال الفلسطيني ، ذلك الأسلوب الذي يعتمد سياسة الكر والفر، فالفلسطيني الذي تطارده قوات المحتل ، والذي لم تعد أرضه قادرة على حفظ أسراره وحمايته تمتد إليه أيادي الصيادين لتحمله عبر البحر بعيداً عن بطش المحتل٠٠

وفي قوله : " صلابته في التحقيق جعلت المحقق يلجأ لأساليب غير إنسانية أورثته حالة من الصرع ٠٠"

لخص الكاتب واقع السجين الفلسطيني وما يتعرض له من أساليب القمع الوحشية وبين الآثار الناجمة عنها والتي تلازمه حتى تقضى عليه في نهاية المطاف. وفي محاولته التغلغل في أعماق البحار سعيد ، ورصد همسات روحه وخلجات وجدانه وهو يناقش موضوعاً صعباً : " ماذا لو طلب الريس منى الغطس على الشنشوله ؟ أو فاجأتني الحالة وأنا بين الصيادين ، أو أمام ابنة عمي التي ما زال القلب يعشقها لولا الظروف ! أي الأطباء يا ترى أجد عنده الحل ؟ وماذا لو رأيت غريقاً تطويه اللجة ؟" نلمح قدراً غير يسير من دهاء القاص في تكثيف المأساة والتسلل من خلال براعة تصوير الصراع النفسي إلى وجدان القارئ وإثارة مشاعر الحزن والشفقة على ذلك البحار الذي يقف أمام الحقيقة

العاريـة باستسـلام يـنم عـن الطيبـة ووداعـة تـدلل علـى الكبرياء المكلوم ٠

وفـي المشـهد الجنـائزي نـرى ثـلاث لوحـات بارعـة الإيحاء والدلالـة تتعانق لتكثيف الحزن وتعميق المأساة ، ففي اللوحة الأولى يدلل على أواصر الترابط والمحبة بين البحر والبحار : " ينتقل مع تيارات البحر يودع صخوره وطحالبه٠٠" ، فالبحار الذي لم يمض على تحرر جسده من قيود السجن إلا يوم واحد ، تأبى روحه إلا أن تتحرر مـن جسـده فـي حضـن المحبـوب فـي لحظـة مفاجئـة لا تحمل بين طياتها تردد التخيير ، لذلك كانت دلالة الموت في هذه القصة قريبة إلى حد ما من دلالته في الأساطير القديمة حيث نجد الموت المفاجئ لأبطال الأساطير هو النهايـة الطبيعيـة التـي يقـدم عليهـا البطـل بشـجاعة واطمئنـان وذلـك لثقتـه بأنـه سـيظل حيـاً فـي وجـدان

الجماعة(٢٢) ، وهذا هو الحال بالنسبة للبحار سعيد الذي أقدم على إنقاذ الغريق في اللحظة التي كان يتأمل فيها خطورة حالته ٠

وجاءت اللوحة الثانية " ٠٠ أنزل الجثمان الملفوف بشراع الفلوكة الأبيض ٠٠" لتعبر عن الوجدان الجماعي الذي يُقدِّر بطولة هذا البحار ، وما لف جسده بالشراع إلا إيماءة إلى بطولته التي تشبه إلى حد بعيد بطولة العسكريين الذين يسقطون على أرض المعركة ، لذلك استحق أن يلف جسده بأشرف رمز عرفة مجتمع الصيادين ، إنه الراية والعلم ، رمز الشموخ والنقاء ٠٠

وإذا كانت قوة الدفع دلالة من بين دلالات ذلك الشراع ، فإن اللوحة الأخيرة : " تشابكت الأيدي متعاهدة " تدلل على إصرار الصيادين على مواصلة المسيرة ،

وتعلن استمرارية قوة الدفع التي ستقود " الفلوكة " إلى شاطئ الحرية يوماً .

وببراعة متناهية حرص القاص على تضمين هذه القصة الغاية التي سعى إلى تحقيقها في قصصه السابقة ، وهي إثارة المشاعر ضد المحتل وممارساته التعسفية ، ألم يكن هلاك البطل بسبب تلك الممارسات التي أورثته حالة من الصرع !

*** الشندر(٢٣) :**

تجسد هذه القصة البعد الأخلاقي لمجتمع الصيادين ، وذلك من خلال تصوير السلوك الواقعي للشخصية التي تدور حولها القصة ، حيث يرقب القاص عثمان خالد سلوك " الشندر " ويبين كيفية تفاعله مع

مغريات الحياة المادية التي تهبه فرصة قد لا تتكرر لتحقيق أمانيه ٠

ورغم بساطة الحدث الذي بنيت عليه فكرة القصة، وهو أماني الشندر ، إلا أن القاص قد حوّله إلى نسيج متكامل يعكس ملامح البناء الفني للقصة القصيرة، فالحدث مبرر بمرارة الواقع اللاإنساني لقطاع الصيادين ، ذلك الواقع الذي نرى صداه في أحلام الشندر وأمانيه : " سيكون من اللنشات النادرة ٠٠٠٠"٠

قد يعكس هذا الحلم الاستجابة للرغبات المكبوتة لتلك الشريحة من شرائح المجتمع الفلسطيني ، فهو في ظاهره يشير إلى فقدان أبسط ضرورات الحياة ، كما أنه في دلالته لا ينفصل عن عالم عثمان خالد القصصي ، الذي تعرّفنا على رموزه وايحاءاته في القصص السابقة ، فإذا كانت الفلوكة في قصة " هجرة النورس الخريفية " قد

مثّلت الشكل التقليدي للمقاومة ، ودللت على عجز ذلك الشكل عن اجتياز المرحلة ، وذلك من خلال رتابة حركتها التي لم تُمَكِّن البَحّار من وصول شاطئ الأمان ٠ فإن ظهور اللنش في نهاية قصة " السردين المر " كان استجابة لمتطلبات المرحلة الجديدة ، وإعلاناً عن قبول التحدي بشكله الجديد ، ومبشراً بالتغيير النوعي المطلوب حيث التحول من بدائية الحجر إلى آلية السلاح ، فبعد أن كانت الفلوكة تتجنب المواجهة وتؤثر السلامة ، رأينا اللنش يسعى للمواجهة ، ويبحث عن الزورق اللعين – الطراد – ليقبره ٠٠٠

وما اللنش في أحلام الشندر وأمانيه إلا تعميق لدلالة ذلك الرمز في التعبير عن الرغبة الملحة في تواصل العطاء، لذلك نجد القاص قد حشد جيشاً من الصيادين على ظهره – عشرين صياداً – وجعله من

اللنشات النادرة لكي يفي بالمتطلبات المنظورة ، ثم جعل ندرته المطلوبة تبرر مقدرته على افتتاح الشطآن التي رأيناها مغلقة في قصصه السابقة .

واستجابة لدلالة هذا الرمز جاء البيت في المرتبة الثانية من أحلام الشندر ، وكأن تحقيق الأمنية في ذلك اللنش يكفل بالضرورة وجود البيت الذي سيعيد للصياد أدميته المسلوبة كما يكفل تحقيق الأمنية الثالثة من أماني الشندر – الزوجات الحسناوات للأبناء – وهنا نلاحظ أن أماني الشندر جاءت منطقية في ترتيبها ، فوجود القوة القادرة على تغيير الواقع ستحقق الأمان والاستقرار الذي نراه في البيت الوطن ووجود الأمان والاستقرار سيكفل للجيل الثاني – الأبناء – الاستمرارية والنماء ...

أما شخصية الشندر الظاهرية – التي يبدو بها أمام الناس – فقد بدأ الكاتب في رسم ملامحها منذ

الجملة الأولى، وما نكاد نمضي مع القصة قليلاً حتى نتعرف على معظم سماتها وخصائصها فهي شخصية اجتماعية مرحة ، حازمة في اتخاذ القرارات الصعبة ، على درجة كبيرة من التوتر والقلق لا تستسلم إلى ضجرها بالحياة ٠٠٠

ويفسح محك الاختبار المجال للشخصية بمستواها الثاني – الخاص أو السري الذي لا يظهر إلا حين يخلو الإنسان بنفسه – للظهور(٢٤) ، فبين الفقر المدقع والفرصة السانحة للثراء الفاحش يختبر القاص أخلاقيات الصياد "الشندر" فينشأ الصراع الذي يكشف عن جوهر الأشياء ، فتحقق الأمنية بات وشيكاً " ها هي الأماني في الأكياس تبتسم لنا ، سنشترى " اللنش " ونبني البيت ، وسنتزوج٠٠٠"٠

وهنا تبدأ ملامح أصالة تلك الشخصية في الظهور ، إن الأرق والقلق النفسي يشكلان البداية الجنينية للقرار الحاسم والسلوك المرتقب ، ويوحيان بعدم سلامة وسيلة تحقيق الأمنية : "٠٠ ودع الشندر جلسته ، والأحلام ترافقه إلى منامه ، تطارده مع تقلباته ، وأخيراً غلبه النوم ، لكن ديكة العزبة أيقظت عيوناً شاهدت صنوف الأحلام والهواجس ، تنحنح ، عطس ، تنخع ، كبر ، افترش الأرض٠٠"٠

ثم يتطور هذا القلق ليتحول إلى صراع نفسي عنيف يرخى بظلاله على عناصر الطبيعة التي تجسد ضمير الصياد ، ومن ثم تبدأ إرهاصات حسم هذا الصراع تتضح من خلال تلك الطبيعة الرافضة أولاً حيث " اختلطت الألوان، وانتفض البحر ، واهتزت السقيفة بما فيها ٠٠" ، ثم من خلال التناقضات السلوكية

للشخصيات الثانوية التي جسّدت ضعف الشر الدخيل على تلك الشريحة مقابل عراقة الخير وقوته ، فمثّل الابنان صوت الرغبة الطائشة وأداة تحقيقها ٠٠ ، ومثلت المرأة – الإحساس الصادق في استشعار الخطر: "٠٠ لكن صدر الأم الذي دب فيه الارتياب ضاق بالصورة ٠٠" ، كما مثلت الموقف الإيجابي في رفض ذلك الخطر والتحريض على دفعه : " ٠٠ ولكن صوت نحيب الأم الهارع للخارج كان أقوى : لا وألف لا٠٠٠"٠

ومع احتدام الصراع الداخلي ، الذي هو في حقيقته صراع الرغبات المكبوتة على القيم والمبادئ الراسخة ، تتجلى مقدرة القاص على التحليل الصادق للنفس البشرية حيث يطلعنا على كل ما يدور في داخل الصياد : " ها هي الفرصة تأتيك ، والفرصة لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة، أحلامك كلها ستتحقق ٠٠٠٠

لكنه السم ، كم شابا سيدمر ؟ وكم أسرة ستتقوض أركانها ، كل هذا من أجل ماذا ؟ بيت ولنش !"٠

ومع بلوغ الأحاسيس والانفعالات ذروتها يبدأ القاص في التلميح إلى البعد الآخر للمعنى ، ذلك البعد الذي ينسجم مع رموزه وإيحاءاته : "٠٠ لكنه الخاتم المنشود – أي اللنش – من خلال تشابك تلك الأحاسيس وتقابلها " ٠ قل الجحيم القاتل ، الأماني التي طال انتظارها ، بل الضياع الأبدي ، إنه تطلع الصيادين ، كلا إنه قتل الولد ، إنه عطاء البحر ، لكن البحر يلفظ كل خبيث يقذفه للرمل لكي تلتهمه الشمس ، إذن فلتكن يا شندر بحراً ٠٠٠

لقد توصل الشندر من خلال تلك المقابلات إلى منطقية القرار ، حيث تيقن من أن الحصول على اللنش والبيت بتلك الوسيلة غير الشريفة والمدمرة لن يجدي

نفعاً، إنه لن يصل إلى الغاية المنشودة من اللنش والبيت إذا هدم الجيل الذي تعقد عليه الآمال ٠٠٠ فما فائدة اللنش بعد الضياع الأبدي ، ومَن سيعتلي ظهره ويفتتح به الشطآن إذن ؟ وكيف يبنى البيت . الوطن – بعد قتل الولد ، ومن سيعمره ؟!! لذلك كان حرق السقيفة آخر قرارات الشندر المبررة ، أليست هي " أول سقيفة بنيت في العزبة ، ووُلِد فيها الحب الأول "، لقد فقدت دلالتها الروحية وأصالتها حينما دنستها السموم(٢٥) ٠ إن حرق السقيفة دلالة واضحة على رفض الواقع الأليم ، فهي لا تدلل على الثبات الذي تمناه في البيت الأسمنتي ، لذلك فلتحرق السقيفة بما فيها وليبق للحلم ثباته بعد أن وضع في مكانه الصحيح ؟!

ولكي تتجلى حقيقة مشاعر الشندر وهو يرى السقيفة تحترق ، وتحترق معها الفرصة الطائشة لتحقيق

الحلم ، أعتمد القاص عنصر المفارقة الذي يستخدم لقتل العاطفية المفرطة وللقضاء على المظهر الزائف ، كما يستخدم لتعميق المعنى وخدمة ازدواجية الدلالة(٢٦) ، وبذلك تمكن من التنبيه على رموزه وشرح دلالتها دون أن يقدم على ذلك صراحة بل رأينا الشيء يقال دون أن يقال، إذ يكفي تأمل الشندر وهو يشوى السمك ويستعد لتناول وجبة الإفطار دون اكتراث بفزع سكان العزبة الذين هرعوا لإخماد النيران المشتعلة في السقيفة ، ويكفي رصد اللامبالاة الهادفة إلى إظهار قناعة الشندر فيما أقدم عليه حيث رأيناه يشير بيده لتناول طعام الإفطار: " ومن بين حجر الطين الملتهب ، وحزن الصيادين ، وقهقهات الشندر التي ارتفعت بارتفاع عمود الدخان ، بدأت السقيفة تبث صوراً وألواناً ٠٠٠"، وقد تجلى الجانب الإيجابي للمفارقة حينما رأينا السخرية وقهقهات الشندر قد

ولـدت مـن رحـم البـؤس والمعانـاة ، ووجـدنا الشـندر مـن خـلال الموقف الهزلـي يعود لأحلامـه بعد أن وضـعها فـي موضــعها الصــحيح دون أن يأبــه بمواســاة الصــيادين وتعـاطفهم معـه " وقـف الصـيادون يهونـون عليـه : " ربنـا يعوض عليك ، ضربة تخطئ الرأس سليمة ، فيرد وعيناه تغازلان البحر والفلوكة تجرى "بس لو الله ٠٠٠" ٠

وكأني بلسان حال الشندر وهو فـي هذا الموقف يقول : إنني لا أستحق التعاطف ٠٠ لا تأبهون بما حدث لأنـه كـان ينبغـي أن يحدث !! ومـا نيل المطالـب بـالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا ٠٠ لذلك لا أريد لذلك الحلم أن يتحقــق بتلــك الســهولة المرفوضــة ، ينبغــي أن تمــوت الوسيلة غير الشريفة وتبقـى الغايـة النبيلـة التـي يمكـن أن تتحقق بالصبر والمثابرة – وقد ظهرت أدلة ذلك في نهايـة

القصة مع الفلوكة التي تحتاج في حركتها إلى قوة السواعد ..

وبعد .. فقد انتمت هذه القصة بصدق وقوة إلى عالم البحر والصياد ، كما انتمت للواقع الذي يتعامل معه ويتأثر به ذلك العالم ، ورغم عدم تعرضها الصريح لممارسات جنود الاحتلال في تصوير معاناة تلك الشريحة من شرائح المجتمع زمن الانتفاضة – كما هو الحال في القصص السابقة – إلا أنها تتناول أشكالاً أخرى للمعاناة تحت وطأة الاحتلال ، فهي أولاً تعالج مشكلة الفقر وتقدمها بطريقة بارعة دون افتعال أو تصنّع كما رأينا في أحلام الشندر الذي يتمنى أن يمتلك منزلاً تتوفر فيه أبسط مقومات المنزل من مطبخ وحمام ودورة مياه تحافظ على عفاف من يستعملها ... وهي ثانيا وبالطريقة نفسها تتعرض لتهريب المخدرات عبر البحر

والاتجار بها ، ثم بطريقة منطقية رأينا الفقر يرتبط بتلك السلبية من سلبيات المجتمع التي ظهرت في ظل غياب رقابة السلطة الوطنية ، فالفقر يقود إلى الأنانية ويؤدى إلى التفكير في اقتراف الرذيلة ...

وكأن القصد النهائي المباشر في هذه القصة هو إظهار أصالة البحار الفلسطيني وصدق انتمائه رغم تعاسته التي بدت كحالة طبيعية لا تقبل التبديل ما لم تتغير الظروف المحيطة به والعوامل المؤثرة في مجتمعه ... وهو في المعنى الإيحائي يعكس الحاجة إلى تغيير تلك الظروف والعوامل ويبرهن على زيف الوسيلة التي قد توهم بجدواها ومقدرتها على التغيير ، وأخيرا تغرى بضرورة العمل الصادق وتبشر بجدواه ...

أما بعد :

فإنني لا أزعم في هذه الرؤية النقدية أنني قد تناولت هذه القصص من جميع الجوانب الموضوعية والفنية ، فالقصص مليئة بالإيحاءات والدلالات ، وهنالك الكثير الذي يمكن أن يُقال في بنائها الفني وبنيويتها اللغوية ٠٠٠ وحيث أن هدف هذه الدراسة هو التنبيه إلى ما ينشر في مجلاتنا وصحفنا المحلية ، فإن العجالة هي سمة هذه الدراسة ٠

هوامش

١- نشرت في مجلة الجامعة الإسلامية ، المجلد الأول ، العدد الأول ، يناير ١٩٩٣م ٠

٢- عثمان خالد أبو جحجوح : كاتب غزي نشر العديد من القصص في الصحف والمجلات الأدبية ، ومن قصصه المنشورة مثلاً : الزبد الوردي " مجلة الراصد " ، الريس أبو سمرة " مجلة الكاتب " ، الحوت " مجلة الكاتب " ، مهرجان في سوق الباذنجان " جريدة القدس " ، بياع اللوز " مجلة صوت التربية – غزة"، الوطن يودع أبناءه مكرها "جريدة القدس" ٠

٣- راجع : سويف ، مصطفي : الأسس النفسية للإبداع الفنـــي، ط٠ ٢ ، دار المعــارف ، مصـــر ، ١٩٩٥م ، ص٠ ٠٨ ٠

٤- مجلــة الكاتــب ، العـدد ١٤٣ ، مــايو ١٩٩٢م ، ص٠ ١٠٤ وما بعدها ٠

٥- لقد سنّ المحتل الكثير من القوانين الجائرة التي تحول بين الصياد وممارسة حرفته التي يرتزق منها ، حيث قلّص أكثر من مرة الرقعة المسموح الصيد فيها ، ومنع الصيادين من دخول البحر لفترات طويلة ٠٠٠ وقد احتج الصيادون على ذلك ، واضربوا عن دخول البحر وممارسة حرفة الصيد أكثر من مرة ولكن دون جدوى ٠ أنظر مثلاً : جريدة الفجر المقدسية ، الصادرة بتاريخ ١٩٨٠/٥/٣١م ٠

٦- راجع : - الزيات ، لطيفة : مقومات القصة القصيرة، مجلة الرسالة، العدد ١٠٩١ ، ١٠ ديسمبر ١٩٦٤م ، ص٠ ١٩ ٠

- عياد ، شكري : القصة القصيرة في مصر - دراسة في تأصيل فن أدبي ، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٧م ، ص٠ ٣٧ ٠

- رشدي ، رشاد : فن القصة القصيرة ، ط٠ ٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م ، ص٠ ١١ وما بعدها ٠

- مكي ، الطاهر : القصة القصيرة - دراسة ومختارات، ط٠ ١ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٧ م ، ص٠ ٩٦ وما بعدها ٠

٧- البيارق ، الصادرة بتاريخ ١٩٩٢/٧/١٧م ، ص ١٣ - ١٤

٨- راجـــع : صـــبري ، حـــافظ : الخصـــائص البنائيـــة للأقصوصـة ، مجلـة فصـول ، المجلـد الثـاني ، العـدد الرابع ، ١٩٨٢، ص٠ ٢٤ ٠

٩- راجع : رشدي ، رشاد : فن القصة القصيرة ، ص ١١ ٠

١٠- راجع : في أهمية إحكام نهاية القصة القصيرة: مكي، الطاهر : القصة القصيرة ، ص٠ ٦٥ - ٦٨ ٠

١١- الغمقة : عمق مياه يقدر بمئة قامة بحرية ٠

١٢- راجع : عرنيطة ، يسرى : الفنون الشعبية في فلسطين ، مركـز الأبحـاث ، بيـروت ، ١٩٦٨م ، ص٠ ١٨٧ ٠

١٣- مجلة الكاتب ، العدد ١٤٨ ، أكتوبر ١٩٩٢ م ، ص٠ ٩٤ وما بعدها ٠

١٤- راجـع : منـدور ، محمـد : الأدب ومذاهبـه ، ط٠ دار نهضة مصر (بدون تاريخ)، ص٠ ٨٢ ٠

١٥- راجع : النساج ، سيد : تطور فن القصة القصيرة في مصر ، ط٠ ٣ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٤ م، ص٠ ١٣٢ ٠

١٦- راجع : شحادة ، كليمنص وآخرون : التربية الصحية والاجتماعية ، ط٠ عمان،١٩٦٨، ص٠ ٢٣٢ ٠

١٧- يموت ، بشير : شاعرات العرب ، ط٠ ١، المكتبة الأهلية، بيروت ، ١٩٣٤م، ص ١٥٧-١٥٨ وهي من قصيدة للشاعرة " ميسون بنت بحدل ، زوج معاوية وأم ولده يزيد"٠

١٨- المنار ، الصادرة بتاريخ ١٩٩٢/١٠/٥م ، ص٠ ١٤ ٠

١٩- راجع : في بناء الشخصية ومستوياتها : ذهني ، محمود : تذوق الأدب ، ط٠ الأنجلو المصرية، ص٠ ١٤٦-١٥٤

٢٠- راجع : عياد ، شكري : البطل في الأدب والأساطير، ط٠ ١ ، القاهرة ، ١٩٥٩م ، ص٠ ١٦٩ ٠

٢١- راجع في براعة العنوان ودلالته : مجلة فصول ، المجلد الثاني ، العدد الرابع ، ١٩٨٢م ، ص٠ ٨٢ ٠

٢٢- عياد، شكري: البطل في الأدب والأساطير، ص ١٦٩

٢٣- النهار ، الصادرة بتاريخ ١٩٩٢/١٠/٨م ، " الصفحة الأدبية " ٠

٢٤- راجع : ذهني ، محمود : تذوق الأدب ، ص٠ ١٤٧

٢٥- راجع في دلالة المكان : مجلة فصول ، المجلد الثاني، العدد الرابع ، ١٩٨٢ م ، ص٠ ١٨٦ ٠

وفي قول الكاتب " أول سقيفة بنيت في العزبة " إشارة إلى قدسية المكان واستلهام لقوله تعالى : " إنّ أولَ بيتٍ وُضعَ للناسِ للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين " آل عمران: ٦٩ ٠

٢٦- السابق ، ص٠ ١٤٤ ٠

الفهرس

ملخص البحث ٥

أما قبل ٧

هجرة النورس الخريفية ١٣

الفنار ١٨

السردين المر ٢٧

آخر حقائق غرق البحار سعيد ٣٧

الشندر ٥١

أما بعد ٦٤

هوامش ٦٥

الطبعة الثانية
مطبعة المقداد
غزة
١٤١٧هـ . ١٩٩٦م